(٣)

" الله مولى الّذين آمنوا وثوابهم الجنة، والذين كفروا لا مولى لهم وعقابهم النّار "

الآيات (٧ - ١٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩
أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ۝١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ
وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ
أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا
لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ﴾

فتعساً لهم : تعساً مفعول مطلق لفعل محذوف والتّقدير : فتعسوا تعساً[1] والتّعس أن لا ينتعش العاثر من عثرته، والتّعس في اللّغة الانحطاط والعثور والهلاك والشّرّ والبعد[1]، يقول : فخزياً لهم وشقاءً وبلاءً[2]، وعطف قوله ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ على قوله ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ وهو فعلٌ ماض، والتّعس اسم وإن كان اسماً ففي معنى الفعل لما فيه من معنى الدّعاء، فهو بمعنى أتعسهم الله[3].

يا أيها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ إن تنصروا الله تعالى بالسّنان والأركان واللّسان ينصركم على عدوّ الله تعالى وعدّو رسوله ﷺ وعدوّكم، ويثبّت أقدامكم في ميادين القتال، ويربط على قلوبكم في مواطن النّزال.

والّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ، فتعساً لهم وشقاءً وهلاكا، ولتزلّ بهم الأقدام، وليسقطوا على وجوهم وجنوبهم وظهورهم وعلى كلّ الأحوال. لقد أتعس الله تعالى أولئك الكافرين، وأضلّ أعمالهم، وصرفها عن طريق الرّشد وسبيل الاستقامة. لقد أتعس الحقّ جلّ وعلا الكافرين وزادهم ضلالاً بسبب أنّهم كرهوا ما أنزل الله تعالى على حبيبه ﷺ من قرآنٍ مجيد تبيّنه السّنة النّبويّة المطهّرة، فأحبط الله تعالى أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام وأبطل ثوابها لأنّهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى ففقدت شرط الإخلاص.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٤٠ و ٤١

[1] انظر لسان العرب " تعس "

[2] تفسير الطّبري ٢٦ / ٢٩

[3] انظر تفسير الطبري ٢٦ / ٢٩ ولسان العرب " تعس "

دمّر الله عليهم: مفعول دمّر محذوف[1] أي دمر عليهم منازلهم[2] وأموالهم وممتلكاتهم[3]

وللكافرين أمثالها : وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله ﷺ من العذاب العاجل، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الّذين كانوا من قبلهم رسلهم[4].

أفلم يَسِرْ كفّار قريش في الأرض فينظروا في رحلة الصّيف – مثلاً – إلى الشّام ورحلة الشّتاء إلى اليمن كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم من المكذّبين رسل الله تعالى إليهم. لقد دمّر الله تعالى عليهم منازلهم وأموالهم وممتلكاتهم على غرار ما حدث لثمود الّذين كذّبوا في الشّمال صالحاً عليه السّلام، ولعاد الّذين كذّبوا في الجنوب هوداً عليه السّلام. وللكافرين من قريش ومن شاكلهم من الكافرين المكذّبين أمثال تلك العواقب الوخيمة إن لم يبادروا إلى التّوبة النّصوح.

لقد نصر الله تعالى المؤمنين وزادهم هدى، وأهلك الكافرين وزادهم ضلالاً، بسبب أنّ الله تعالى هو مولى الّذين آمنوا وناصرهم وأنّ الكافرين لا مولى لهم ولا ناصر.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ ﴾

---

[1] مفردات الرّاغب الأصفهاني : " دمر " ١ / ٢٢٩

[2] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٠

[3] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٤٢

[4] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٠

إنّ الله تعالى يدخل الّذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الّصالحات بجوارحهم؛ جنّات تجري من تحتها الأنهار المتدفقّة المختلفة الأنواع. والّذين كفروا يتمتّعون في هذه الحياة الدّنيا ويأكلون كما تأكل الأنعام ولا يشبعون، والنار مثوى لهم في الآخرة ومسكنٌ ومصير.

ثبت في الصحيح[1] أنّ رسول الله تعالى ﷺ قال : المؤمن يأكل في مِعىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء [2].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾

وكأيّن من قرية : الواو استئنافيّه. كأين كناية عن عدد بمعنى كثير مبنيّ في محل رفع مبتدأ ، وجملة أهلكناهم في محلّ رفع خبر كأين[3]، ومعنى وكأيّن وكم[4]، هي أشدّ قوّة من قريتك : أهلها أشّد بأساً وأكثر جمعاً وأعدّ عديداً من أهل قريتك وهي مكّة. وأخرج الخبر عن القرية والمراد أهلها[5].

الّتي أخرجتك : روعي لفظ قرية[6] فلذلك أُنّث[7].

أهلكناهم : روعي معنى قرية الأولى[8].

---

(1) انظر – مثلاً – صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ٣ / ١٦٣١ حديث رقم ٢٠٦١ و ٢٠٦٠

(2) الأمعاء : المصارين . ومِعىً بكسر الميم والتّنوين ، مفرد الأمعاء .

(3) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٤٤

(4) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٠

(5) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٠

(6) الجلالين

(7) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣١

(8) الجلالين وتفسير الطّبري ٢٦ / ٣١

عن ابن عبّاس أنّ نبيّ الله ﷺ لّما خرج من مكّة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكّة فقال : أنت أحبّ بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إليّ، فلو أنّ المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ، فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحول[1] الجاهلّية فأنزل الله تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ الآية[2] وقيل إنّ الآية الكريمة نزلت بعد الهجرة[3].

وكم من قريةٍ هي أشد قوّةً من قريتك مكّة المكرّمة، الّتي أخرجتك يا محمّد أهلكناهم فلا ناصر لهم، صَرَفَ العذاب عنهم أو خفّفَه. إنّ على كّفار مكّة أن يعتبروا وألا يظنّوا إمهال الله تعالى إهمالاً لهم.

أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه جلّ وعلا وهدىً من الله تعالى فآمن وعمل صالحاً، كمن زيّن له الشّيطان الرّجيم، والنّفس الأمارة بالسّوء سوء عمله فكفر وصدّ عن سبيل الله تعالى واتّبع هواه فعبد الصّنم الّذي تهواه نفسه الأمّارة بالسّوء. بإغواءٍ من الشيطان الرّجيم وتورّط في الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك؟

لا يستوي المؤمنون والكافرون، ولا يستوي أصحاب الجنّة وأصحاب النّار، ولا شَبَهَ بين الفريقّين.

وبشأن الآية الكريمة الثّالثة عشرة يقول ابن عطيّة[4] : " إنّها نزلت بمكّة في وقت دخول الّنبيّ ُفيها عام الفتح أو سنة الحديبية. وما كان مثل هذا فهو معدودٌ في المدنّي، لانّ المراعي في ذلك إنّما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها".

---

(1) الذّحول بضم الذّال جمع ذحل بفتح الحاء . بمعنى الحقد .

(2) انظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٣١

(3) انظر البحر المحيط ٨ / ٧٢

(4) المحرّر الوجيز ١٥ / ٤٨

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

مَثَل الجنّة : صفة الجنّة[١] ونعتها[٢].

غير آسن : غير متغير الرّيح. يقال منه : قد أسن ماء هذه البئر إذا تغيّرت ريح مائها فأنتنت فهو تأسن أسْنا[٣] يقال : أسَنَ الماءيأسِنُ يأسُن أسْناً وأُسونا، و أسِنَ بالكسر يأسَن أسَنا[٤].

لذّة : لذيذة [٥].

كمن هو خالدٌ في النّار : كمن متعلّق بخبر لمبتدأ محذوفٍ تقديره : أمن هو في هذا النّعيم كمن هو خالد[٦] أمَنْ هو في هذه الجنّة الّتي صفتها ما وصفنا كمن هو خالدٌ في النّار[٧].

ماءً حميماً : شديد الحرارة[٨].

صفة الجنّة الّتي وعدها الله تعالى الّذين اتّقوه جلّ وعلا في الّدنيا فأطاعوه، فعملوا الحسنات وتركوا السّيّئات فيها أربعة أنواع من الأنهار المتدفقّة في أرجائها.

---

[١] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣١

[٢] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٥

[٣] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣١

[٤] لسان العرب : " أسن "

[٥] الجلالين ولسان العرب : " أسن "

[٦] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٤٦

[٧] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٢

[٨] الجلالين

فهناك أنهار الماء غير المتغيّر الرّائحة.

وأنهار اللّبن الّذي لم يتغيرّ طعمه لأنّه لم يخرج من ضروع الماشية بل أنشأه الله تعالى إنشاءً.

وأنهار الخمر اللّذيذة للشّاربين والخالية من منغّصات خمر الدّنيا طعماً ورائحة ولوناً وصداعاً وفساداً .

وأنهار العسل المصفى من أدنى شائبة، كالشّمع لأنه لم يخرج من بطون النّحل بل أنشأه الله تعالى إنشاءً.

وبالإضافة إلى هذه الأنواع الأربعة من الأنهار المتدفّقة؛ لهم في الجنّة من كلّ الثّمرات والفواكه مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. ويتوّج كلّ ذلك النّعيم المقيم بالرّضا من الرّبّ الرّؤوف الرّحيم، الّذي يغفر لهم ذنوبهم ، ويستر عيوبهم، ويبدّل سيّئاتهم حسنات.

أمَنْ هو خالدٌ في هذا النّعيم المقيم، كمن هو خالد في نار الجحيم؟ لا يستويان وفي مقابل أنواع الأنهار للمتّقين هنالك الماء الشّديد الحرارة الّذي يتجرّعه المجرمون. اضطراراً و الّذي يقطّع أمعاءهم فتخرج من أدبارهم والعياذ بالله.

وممّا يملأ الصدر انشراحاً، والعقل ارتياحاً في مجال النّظم ترتيب الأنهار، بحيث ينبّه هذا التّرتيب إلى ترتيب الحاجة في الحياة الدّنيا إلى هذه الأنواع الأربعة من السّوائل، وإلى ترتيب كمّيّاتها بحيث يكون التّحوّل المطّرد من الكمّيّة الأكبر الّتي يُحْتاج إليها؛ إلى الّتي تقلّ عنها، وهكذا.

لقد جعل الله تعالى في الحياة الدّنيا من الماء كلّ شيءٍ حيّ. ومعروفٌ حاجة الإنسانيّة إلى الماء بعد الهواء مباشرة، وإلى الكمّيّات الهائلة من الماء للأغراض المختلفة.

يلي ذلك الحاجة إلى اللّبن وإلى الكمّيّات الكبيرة منه بعد الماء، لأن اللّبن يجمع بين كونه شراباً وطعاماً.

وبعد الشّراب والطّعام اللّذين تمثّلا في أنهار الماء واللّبن جاءت اللّذّة المتمثّلة في أنهار الخمر الخالصة من كلّ شوائب الخمر في الدّنيا. والخمر في السّيولة من جنس الماء واللّبن.

وبعد تمام اللّذّة تأتي أنهار العسل المصفّى. وقد استقرّ في نفوس البشر أنّ العسل مسك الختام في مجال المشروبات؛ لأنّه يقوم بدور العلاج وطرد ما قد يكون هنالك من أذى.

لقد نبّه ترتيب الأنهار الأربعة في الآية الكريمة وفق هذا النّسق على هذه المعاني.

وممّا يلفت النّظر كذلك في مجال إعجاز الآية الكريمة توزيع الصّفات على أنواع الأنهار الأربعة. لقد نال كلّ نهرٍ أهمّ صفاته. ووراء ذلك ثمّة إعجاز في توزيع الصّفات. إنّ الماء غير آسن، أي غير متغيّر الرّائحة، مع أنّ الماء يتغيّر طعمه ولونه كذلك. ولكّن الطّعم كان من نصيب أنهار اللّبن الّذي لم يتغيّر طعمه، واللّون من نصيب أنهار العسل المصفّى. وهكذا توزّع بالعدل كلٌّ من الرّائحة والطّعم واللّون. ويتوّج كلّ ذلك باللّذة الخالصة الّتي هي من نصيب أنهار الخمر اللّذيذة طعماً ولوناً ومفعولاً.

ونحن في غنى عن القول بأنّ في نفي تغيُّر رائحة الماء وطعم اللّبن نفياً لكلّ تغيّر يطرأ بعد ذلك.

(٤)

" طبع الله تعالى على قلوب المنافقين وزاد الّذين اهتدوا هدى "

الآيات (١٦ - ١٩)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

ومنهم من يستمع إليك : ومن هؤلاء الكافرين من يستمع إليك وهم المنافقون[1]

قالوا للّذين أوتوا العلم : من الصحّابة[2] منهم ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما [3].

آنفاً : السّاعة [4].

فهل ينظرون : فهل ينتظرون [5].

بغتة : فجأة[6].

أشراطها : علاماتها منها بعثة النّبيّ ﷺ [7].

وأدلّتها ومقدّماتها[8] وأمارات اقترابها[9]

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٢ وتفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٧ والجلابين

[2] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٣ وتفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٧ والجلابين

[3] انظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٢ والجلابين

[4] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٧ والجلابين

[5] تفسير الطّبرى ٢٦ / ٣٣ والجلابين

[6] الجلالين

[7] الجلالين

[8] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٣

[9] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٧

فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم : فكيف للكافرين بالتّذكّر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك[1]

والله يعلم متقلّبكم ومثواكم : والله يعلم تصرّفكم في نهاركم ومستقرّكم في ليلكم[2]

ومن هؤلاء الكافرين فريقٌ يستمع إليك يا محمد وأنت تتلو القرآن الكريم أو تبيّن للنّاس أمر دينهم، وهذا الفريق هم المنافقون. حتّى إذا خرجوا من عندك أيّها الرّسول الكريم والنّبي العظيم قالوا للّذين أوتوا العلم من الصّحابة كابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما : ماذا قال محمّدٌ السّاعة حينما كنّا معه نستمع إليه، فإنّا لم نفهم شيئاً ممّا قال. أولئك الّذين ختم الله تعالى على قلوبهم فلا يستطيع نور الحقّ أن يتسلّل إليها ويجد فيها مستقرّا، و اتّبعوا أهواءهم كالكافرين سواءً بسواء. وإنّما طبع الله تعالى على قلوب المنافقين لأنها قلوبٌ منصرفةٌ عن الحقّ، ومقبلةٌ على الباطل، فزادها الله تعالى بعداً عن الحق وقرباً من الباطل.

وفي المقابل هنالك المؤمنون المهتدون الّذين جاهدوا في الله تعالى، فزادهم هدًى وآتاهم تقواهم فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة، فهم يسارعون في الخيرات ويجتنبون السّيّئات.

إنّ أولئك الكافرين الّذين يعلنون الكفر والّذين يبطنونه؛ هل ينتظرون إلاّ السّاعة أن تأتيهم فجأة، فقد جاء أشراط السّاعة وعلاماتها، ومنها بعثة محمّد ﷺ . إنّ السّاعة إذا جاءت والقيامة إذا قامت كيف ينفع الكافرين إيمانهم بالسّاعة؟ وكيف تذكّرهم لها وقد فات الأوان و لم يستعدّوا لها مِنْ قبْلِ بالإيمان وعمل الصّالحات؟

---

[1] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٨

[2] تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٩

فاعلم أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أنّه لا إله إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات. وهكذا يكون العلم الصّحيح قبل العمل، وهذا النوع من العلم بمثابة القاعدة الّتي ينطلق منها العمل.

والله تعالى يعلم متقلّبكم أيها النّاس في النّهار ويعلم ما جرحتم فيه وما كسبتم من خيرٍ أو شرّ، ويعلم مثواكم باللّيل ومستقرّكم فيه. إنّ الله تعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً ولا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

روى الإمام مسلم[1] عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرْجِسْ قال : رأيت النّبيّ ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً، أو قال : ثريداً. قال فقلت له : أستغفر لك النّبيّ ﷺ ؟ قال نعم : ولكَ. ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

---

[1] صحيح مسلم ٤ / ١٨٢٣ حديث رقم ٢٣٤٦ وانظر تفسير ابن كثير ٧ / ٢٩٨ .

(٥)

" المؤمنون شجعان ، والمنافقون جبناء، وحثٌّ على تَدَبُّرِ القرآن "

الآيات (٢٠ - ٢٤)

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة. ويقول الّذين صدّقوا الله ورسوله هلاّ نزّلت سورةٌ من الله تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفّار[1]

فإذا أنزلت سورة محكمة : يعني أنّها محكمة بالبيان والفرائض[2] ولم ينسخ منها شيء[3]، والمحكم ما لا يعرض فيه شبهةُ من حيث اللّفظ ولا من حيث المعنى[4].

من الموت : من خوف الموت[5].

فأولى لهم : وعيدٌ توعّد الله به هؤلاء المنافقين[6] ويقول الزّمخشري[7] : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ وعيد. بمعنى فويلٌ لهم. وهو أفعل من الوَلْي وهو القرب، ومعناه الدّعاء

---

(1) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٤

(2) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٤

(3) الجلالين

(4) مفردات الرّاغب الأصفهاني " حكم " ١ / ١٦٩

(5) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٥

(6) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٥

(7) الكشّاف ٣ / ١٣١

عليهم بأن يليهم المكروه" والفاء استئنافيّة. أولى مبتدأ خبره لهم[1] وقيل : أولى مبتدأ، ولهم من صلته. وطاعةٌ خبر. وكأن اللام بمعنى الباء. كأنه قيل فأولى بهم طاعة[2] والقول هنا : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ مثل القول في سورة القيامة[3]: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥ ﴾ وقد اختلف العلماء فيه أهو اسم أو فعل[4] والأكثرون على أنه اسم، فقيل هو مشتق من الوَلْي وهو القرب[5] ويقول ابن عطية[6] : "والمشهور من استعمال أولى أنك تقول : هذا أولى بك من هذا أي أحق. وقد تستعمل أولى فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الزّجر والتوعد : أولى لك يافلان. وهذه الآية من هذا الباب". في ضوء ما سبق نستطيع أن نذهب إلى القول بأنّ ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ ﴾ و ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ إنّما يكون في الشّرّ. وهو حكم الدّعاء على كلٍّ من المنافقين والكافرين بأن يكون المكروه قريباً منهم، والشّرّ لاحقاً بهم، والهلاك محيطاً بهم[7].

طاعةٌ وقولٌ معروف : الأكثرون على أنّ : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ كلامٌ مستقلٌّ محذوفٌ منه أحد الجزأين إمّا الخبر وتقديره أمثل، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه والخليل. وإمّا المبتدأ وتقديره الأمر، أو أمرنا طاعة، أي الأمر المرضيّ لله طاعة[8]

---

(1) انظر هنا الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٢ / ٥٢ والبحر المحيط ٨ / ٨١

(2) البحر المحيط ٨ / ٨١

(3) الآية ٣٤ و ٣٥

(4) البحر المحيط ٨ / ٧١

(5) البحر المحيط ٨ / ٧١ و ٨١ .

(6) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٥ / ٦٧

(7) تأمّلات في سورة محمّد ﷺ للمؤلّف ٢٠١ الطّبعة الثّانية .

(8) البحر المحيط ٨ / ٨١ وانظر الجدول في إعراب القرآن و صرفه ١٢ / ٥٢

فإذا عزم الأمر : فإذا وجب القتال وجاء أمر الله بفرض ذلك كرهتموه وشقّ عليكم[1].

ويقول الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ الحريصون على الجهاد وبذل المهج في سبيل الله تعالى : هلاّ نزّلت على المصطفى ﷺ سورة فيها ذكر الجهاد في سبيل الله تعالى. فإذا أنزلت سورةٌ محكمةٌ واضحة المعنى، بيّنة الدّلالة، محدّدة المغزى، لا غموض فيها ولا لبس ولا تشابه، وذكر فيها القتال بصريح اللّفظ، رأيت يا محمد الّذين في قلوبهم مرض النّفاق ينظرون إليك، خوف أن يُزَجّ بهم في ميدان القتال الفعلي، نظر المغشيّ عليه من خوف الموت، المغميّ عليه وقد حضرته أسباب الوفاة ورأى علاماتها وطلائعها. فأولى لهم الهلاك، وأقرب لأولئك الجبناء العذاب. طاعةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وقولٌ معروف بالسّماع سماع قبول وبالإذعان أحرى بهم وأليق. فإذا عزم الأمر، وجد الجدّ ووجب القتال كرهوا ذلك، وشقّ عليهم، ونكصوا على أعقابهم. إنّهم لو صدقوا الله تعالى، و جاهدوا في سبيله عزّ وجلّ، وبذلوا النّفس والنّفيس ابتغاء مرضاة الله تعالى لكان خيراً لهم في الأولى بحُسْن الذّكر ، وفى الآخرة بنيل درجات المجاهدين في سبيل الله تعالى، ومرتبة الشّهداء السّعداء .

ومن البيّن أنّنا بصدد شرط الطّاعة، وهو أحد أهمّ شرطين في الجنديّة، وذلك في القول : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أمّا الشّرط الآخر فهو شرط النّظام. وإلى هذا الشّرط الآخر المهمّ في الجنديّة أشارت الآية الكريمة الرّابعة من سورة الصّفّ. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

ومن البّين كذلك أنّنا بصدد موضعٍ في القرآن الكريم يكثر فيه البلاغة بالحذف. وإنّ تلاحم حبّات المعنى جعلت فريقاً من العلماء يذهبون إلى القول بعدم الحذف.

---

[1] انظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٥

وكلا الرّأيين وجيه. وفى حال القول بعدم الحذف المعنى واضحُ تمام الوضوح. فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء، الّذي لا يعجزه شيءُ في الأرض ولا في السّماء.

إنّ المعنى قريبٌ مع القول بعدم الحذف

وإنّ المعنى بعيدٌ مع القول بالحذف.

وكما قلنا كلا الرّأيين وجيه، وكلا المعنيين صحيح.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

فهل عسيتم إن تولّيتم : فلعلّكم إن تولّيتم عن تنـــزيل الله جلّ ثنـــاؤه وفـــارقتم أحكام كتابه وأدبرتم عن محمّد ﷺ وعمّا جاءكم به[1]

أم على قلوب أقفالها : أم أقفل الله تعالى على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر[2] أم : منقطعة بمعنى بل[3] جاء في معنى الآيات الكريمات الثّلاث في الصّحيحين[4] واللّفظ لمسلم عن أبي هريرة قال. قال رسول الله ﷺ : إنّ الله خلق الخلق حتّى إذا فَرَغ منهم قامت الرّحم[5] فقالت : هذا مقام العائذ[6] من القطيعة.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٥ وانظر لسان العرب : " عسا " ومعاني القرآن للفرّاء ٣ / ٦٣

[2] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٦

[3] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٢ / ٥٤ وانظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٧ والجلالين

[4] فتح الباري ٨ / ٥٧٩ حديث رقم ٤٨٣٠ وصحيح مسلم ٤ / ١٩٨٠ حديث رقم ٢٥٥٤

[5] الرّحم ، قال القاضي عياض : الرّحم الّتي توصل وتقطع وتُبَرُّ إنّما هي معنىً من المعاني ليست بجسم . وإنّما هي قرابةٌ ونَسَبٌ تجمعه رحم والدة ويتّصل بعضه ببعض ز فسمي ذلك الاتّصال رحماً . والمعنى لا يأتّي منه القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها هنا وتعلّقها ضرب مثل وحسن استعارة ، على عادة العرب في استعمال ذلك، والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصليها و عظيم إثم قاطعيها بعقوقهم صحيح مسلم ١٩٨١/٤ هامش.

[6] العائذ : المستعيذ وهو المعتصم بالّشيء الملتجئ إليه المستجير به .

قال نعم. أما تَرْضَيْن أن أصل من وصلك[1] وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى. قال فذاك لك. ثمّ قال رسول الله ﷺ : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

فلعلكم أيها الكافرون إن أعرضتم عن دين الإسلام وانصرفتم عن اتّباع خير الأنام ﷺ وكذّبتم بالقرآن الكريم أن تفسدوا في الأرض فتّهلكوا الحرث والنّسل، وتقطّعوا أرحامكم، وتمزّقوا شمل قومكم وأهليكم، على غرار ما كنتم تفعلون في الجاهليّة الجهلاء، والفتنة العمياء.

إنّ الّذين يفعلون ذلك هم أولئك الّذين طردهم الله تعالى من رحمته فأصمّ آذانهم عن سماع دعوة الحق سماع قبول، وأعمى أبصارهم فلا تبصر نور الهدى، وبصائرهم فلا ترى نور الحقّ.

هلاّ تدبّر القوم القرآن الكريم الّذي يهدي إلى الّطريقة الّتي هي أقوم، أم أنّ على قلوب القوم الأقفال الخاصّة بها. عن هشام بن عروة عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ يوماً : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

فقال شابٌ من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتّى يكون الله عزّ وجلّ يفتحها أو يفرجها. فمازال الشّابّ في نفس عمر رضي الله عنه حتّى ولي فاستعان به[2]

---

[1] قال العلماء : حقيقة الصّلة العطف والرّحمة. فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفه بهم ورحمته إياهم وعطفه بإحسانه ونعمه . أوْ صلتهم بأهل ملكوته الأعلى وشَرْح صدورهم لمعرفته و طاعته .

[2] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٧

(٦)

" المنافقون يطيعون الكفّار ويُعْرَفون بلحن القول "

الآيات (٢٥ - ٣٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

الشّيطان سوّل لهم : الشّيطان زيّن لهم ارتدادهم على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى[1].

وأملى لهم : بتثليث الميم : مدّة العيش .

ويقال : أملى له في غيّه : أطال. وأملى الرّاعي للبعير في القيد : أرخى ووسّع فيه[2].

إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم إلى الكفر من بعد ما تبيّن لهم الهدى، ورجعوا إلى الشّرك من بعدما ذاقوا حلاوة التّوحيد وهم المنافقون، زيّن الشّيطان الرّجيم لهم سوء عملهم، ووسّع لهم في الآمال والأوهام والأحلام، دون أن يكون لشيءٍ من ذلك رصيدٌ من الواقع، أو نصيبٌ من الحقّ.

---

[1] تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٧

[2] انظر لسان العرب " ملا "

ذلك التّمكّن للشّيطان الرّجيم من المنافقين المرتدّين إلى الكفر بعد الإيمان بسبب أنّ المنافقين قالوا لإخوانهم الكافرين الّذين كرهوا ما نزّل الله تعالى على حبيبه ﷺ من قرآنٍ مجيدٍ سنطيعكم أيّها الكافرون في بعض الأمر الّذي تحبّون من تثبيطٍ للمؤمنين عن الجهاد، وصرفهم عن إيصال الأذى إليكم، وكسر شوكتهم. والله سبحانه وتعالى يعلم إسرار المنافقين لإخوانهم الكافرين كما يعلم إعلانهم، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وهكذا يكون المنافقون إخوان الكافرين، كما أنّهم إخوان الكافرين من أهل الكتاب. لقد نصّت الآية الكريمة الحادية عشرة من سورة الحشر على أخوّة المنافقين لكافري يهود بني النّضير. قال عزّ من قائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فكيف يكون الحال الصّعب والوضع الحرج لأولئك المنافقين إذا حضرتهم أسباب الموت؛ وتوفّتهم ملائكة العذاب يضربون وجوههم الّتي أقبلوا بها على الباطل، وأدبارهم الّتي ارتدّوا بها عن الحقّ الّذي ولّوه هذه الأدبار؟

ذلك الضّرب من قبَل ملائكة العذاب؛ لوجوه المنافقين وأدبارهم بسبب أنّهم اتّبعوا ما أسخط الله تعالى، وأقبلوا عليه بتلك الوجوه القبيحة، وكرهوا ما يرضي الله تعالى، وأداروا ظهورهم لكلّ عملٍ صالحٍ بمقياس الإسلام، فأحبط الله تعالى ثواب أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام، من صلة رحم، وإكرام جار، وإغاثة ملهوف، وما إلى ذلك لأنّهم لم يريدوا وجه الله تعالى بتلك الأعمال.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

أضغانهم : الأضغان جمع ضِغْن، وهو ما في النّفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره[1].

فلعرفتهم بسيماهم : فلعرفتهم بعلاماتهم[2] يقول تعالى : ولو نشاء يا محمّد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعلِ تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السّلامة، وردّ السّرائر إلى عالمها[3]، وقد أنزل الله تعالى سورة براءة، فبيّن فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدّالّة على نفاقهم. ولهذا إنّما كانت تسمّي الفاضحة[4].

ولتعرفنّهم في لحن القول : أي فيما يبدو من كلامهم الدّال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أيّ الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه : ما أسرّ أحدٌ سريرةً إلاّ أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. وفي الحديث : ما أسرّ أحَدٌ سريرةً إلاّ كساه الله جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ[5]، وجاء في مفردات الرّاغب الأصفهاني[6] : "اللّحن صرف الكلام عن سَننه الجاري عليه، إمّا بإزالة الإعراب أو التّصحيف وهو المذموم. وذلك أكثر استعمالاً. وإمّا بإزالته عن التّصريح وصرفه بمعناه إلى تعريضٍ

---

(1) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٠٤

(2) تفسير الطّبري ٢٦ / ٣٨ والجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهاني : " سام " ١ / ٣٣٠

(3) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٠٤

(4) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٠٤

(5) تفسير ابن كثير ٧ / ٣٠٤

(6) " لحن " ٢ / ٥٧٨

وفحوى، وهو محمودٌ عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة. وإيّاه قصد الشّاعر[1]:

(وخير الحديث ما كان لحنا) ..وإياه قُصِد بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ ومنه قيل للفَطِن بما يقتضي فحوى الكلام : لَحِن. وفي الحديث : لعلّ بعضكم ألحنُ بحجته من بعض. أي ألسن وأفضح وأبين كلاماً وأقدر على الحجّة .. "

أم حسب الّذين في قلوبهم مرض النّفاق، وظنّوا أنّ الله سبحانه وتعالى لن يخرج لحبيبه صلّى الله عليه وسلّم حقدهم الشّديد على الإسلام، ولن يعّري بغضهم الأكيد لنبيّ الإسلام ﷺ وللمسلمين. لقد خاب ظنّهم فقد أنزل الله سبحانه وتعالى في فضحهم على رؤوس الأشهاد سورة التّوبة الّتي تلقّب بالفاضحة لفضحها المنافقين وغيرها من السّور كسورة الأحزاب والمنافقون.

ولو نشاء يا محمّد لأريناكهم فلعرفت المنافقين بعلاماتهم الّتي يعرفون بها والّتي لاتفارقهم، ولكنّا لم نشأ إمهالاً لهم لعلّهم يؤوب إليهم رشدهم ويتوبون إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، ولتعرفن يا محمد أولئك المنافقين في لحن القول الّذي يُعْرفون به وفي الميل بالكلام عن صحيح معناه، والانحراف بالمعنى عن صحيح فحواه. والله تعالى يعلم أعمالكم جميعاً أيّها النّاس، فعودوا إلى بارئكم عزّ وجلّ، وتوبوا إلى إليه توبةً نصوحاً.

ويصحّ أن نومئ إلى التدرّج العجيب المتّجه باطّراد من الخفاء إلى الظّهور. إنّ ثمّة حقداً شديداً على المسلمين في صدور المنافقين، وإنّ ثمّة علاماتٍ تبدو عليهم لم يشأ اللّطيف الخبير الرّحيم الحليم أن يكشفها ويعرّيها للمسلمين كي يبصروها بعيونهم الّتي في رؤوسهم، وإنّ ثمّة لحن القول الّذي تسمعه الأذن ويدرك فحواه العقل، وإنّ ثمّة الأعمال الظّاهرة لكلّ ذي عينين.

---

[1] مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريّ صهر الحجّاج . لسان العرب : " لحن " والبيان والتّبيين ١٤٧/١

ولا يكاد العجب ينتهي من جمال القول وبلاغته : ﴿ لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ ويظلّ الذّهن يتفكّر دائماً في أبعاد معاني هذا القول المعجز خطاباً للمصطفى ﷺ : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [1] .

ونودّ أن نرسل دلونا ضمن الدّلاء في تبيين معاني لفظ لحن، وحظّه من تطوّر الدّلالة، فما أجمل الرّحلة مع هذا اللّفظ وما أمتعها.

حينما نستشير معاجم اللّغة تتبين أنّ العلماء نصّوا على أنّ للّحن ستّة معان هي: الخطأ في الإعراب، واللّغة، والغِناء، والفِطنة، والتّعريض، والمعنى[2] وسبق أن تبيّنّا من كلام الرّاغب الأصفهاني أنّ للّحن معنيين اثنين، هما الخطأ بصرف الكلام عن سَننه الجاري عليه بإزالة الإعراب أو التّصحيف. وهذا هو المذموم. أمّا المعنى الآخر وهو المحمود فإنّه بصرف المعنى إلى التّعريض والفحوى . وبناءً على هذا يكون من نصيب المعاني السّتّة معنىً واحدٌ للمذموم هو الخطأ الصّريح، ويصحّ أن يلحقَ بالمذموم غير هذا الخطأ كما سيتبيّن.

ونحن من جانبنا نودّ أن ننظر للفظة لحن من زاوية تطوّر الدّلالة كي يتبيّن العدد الفعليّ لمعاني اللّفظة.

يصحّ أن يكون المعنى الأول للفظة لحن اللّغة واللّسان. واللّحن الّذي هو اللّغة كقول عمر رضي الله عنه : تعلّموا الفرائض والسُّنن واللّحن كما تعلّمون القرآن، يريد اللّغة[3] قال الأزهريّ : معناه تعلّموا لغة العرب في القرآن واعرفوا معانيه[4] وكقولهم بشأن

---

[1] سبق لنا أن درسنا الآية الكريمة بإسهاب في كتابنا : تأمّلات في سورة محمّد ﷺ ، الطبعة الثانية ٢٤٥ - ٢٥٤

[2] لسان العرب : " لحن "

[3] لسان العرب : " لحن "

[4] لسان العرب : " لحن " وانظر النّهاية في غريب الحديث والأثر ٤ / ٢٤١

قوله تعالى[1]: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ العرم المُسنّاة بلحن اليمن، أي بلغة اليمن[2] والعَرِم الأحباس والسّدود الّتي تبنى في أوساط الأودية، واحدها العَرِمة، وهي السِّكْر والمسنّاة الّتي تُسدّ بها المياه وتُقْطع[3]

واللّحن الّذي هو الغِناء وترجيع الصّوت والتّطريب يقال بشأنه مثلاً : فلان لا يعرف لحن هذا الشّعر، أي لا يعرف كيف يغنّيه. قال الشّاعر :

وهاتِفَيْن بشجوٍ بعد ما سجعت ... وُرق الحمام بترجيع و إرنانِ

باتا على غصن بانٍ في ذرى فننٍ[4] ... يردّدان لُحوناً ذاتَ ألوان[5]

وفي الحديث : اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحونَ أهل العشق. اللّحن : التّطريب وترجيع الصّوت وتحسين القراءة والشّعر والغناء. قال : ويشبه أن يكون أراد هذا الّذي يفعله قرّاء الزّمان من اللّحون الّتي يقرؤون بها النّظائر في المحافل، فإنّ اليهود والنّصارى يقرؤون كتبهم نحواً من ذلك[6].

وبشأن المعاني الأخرى الباقية للفظة لحن؛ يبدو أن تطوّر الدّلالة مرتبط بها بوضوح، ويمكن تتبّعه بسهولة. ويصحّ أن يكون المنطلق لتطوّر دلالة لفظة لحن، ما نصّ عليه بعض علماء اللّغة من كون اللّحن إلى الشّيء بمعنى الميل إليه . يقال : لحن إليّ بمعنى مال إلى[7] وليس من الضّروريّ أن يكون الميل أوّل الأمر إلى الخطأ أو إلى الصّواب.

---

[1] سورة سبأ ١٦

[2] لسان العرب : " لحن "

[3] انظر لسان العرب : " عرم " و " سكر" ومعجم البلدان : " العرمَ " ٤ / ١١٠

[4] الفنن : الغصن المستقيم من الشّجرة

[5] انظر لسان العرب : " لحن "

[6] لسان العرب : " لحن " والنّهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٢٤٢

[7] انظر العربيّة ، يوهان فك ٢٣٥

وبشأن الخطأ يكون الميل إليه دون قصدٍ من المتكّلم. وبشأن لحن القول يكون الميل إليه بقصدٍ من المتكلمّ . وحينما يكون الميل بقصدٍ من المتكلّم يرتبط بلفظة لحن معاني التّعريض، والفحوى، والفطنة. إنّ القتّال الكلابّي حينما يقول :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ولحنت لحناً ليس بالمرتاب[1]

إنّما يريد من جهته التّعريض للمخاطبين والإيماء، ويريد منهم في المقابل إدراك الفحوى، والفطنة.

إنّ اللّحن، بمعنى الميل بالكلام عن معناه الأصليّ، أو الميل بالمعنى عن فحواه، يفترض نوعاً رفيعاً من الفطنة لَدى السّامع كي يدرك المعنى المقصود. ومن هنا كان من معاني اللّحن التّعريض والإيماء، وإدراك الفحوى، والفطنة .وهذه المعاني للفظة لحن لازمة، سواءٌ كان لحن القول في الخير أو الشّرّ. إنّ المصطفى ﷺ يطلب من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم، الّذين أرسلهم في غزوة الخندق أو الأحزاب ليخبروه عن بني قريظة، أغدروا أم أنّهم لا يزالون على العهد ، يطلب منهم في حال ثبوت الغدر أن يلحنوا له لحناً يعلمه. والقصد من اللّحن ألاّ يُفَتّ في أعضاد المسلمين وهم في جهة القتال. لقد لحن الصحّابة رضوان الله تعالى عليهم له ﷺ فتأكد له غدر بني قريظة. وفي المقابل يلحن كلٌّ من اليهود والمنافقين بنصّ القرآن الكريم بقصد إيذاء كلٍّ من النبي ﷺ والمسلمين. والآية الكريمة الّتي نحن بصدد الحديث عنها تتحدث عن لَحْنِ القول لدى المنافقين. إنّنا بصدد قولٍ من جهة، وبصدد لحن، أي ميلٍ بهذا القول عن جهة الخير والاستقامة. وينبغي أن يريد المنافقون المتكلّمون التّعريض والإيماء، وينبغي أن يكون من المنافقين المستمعين فطنةٌ يستطيعون عن طريقها إدراك المعنى المقصود من الكلام الّذي يسمعون، وهو المعنى الّذي لا يستطيع أن يدركه الآخرون. وليس بخافٍ

---

[1] لسان العرب : "لحن " وللشّطر الثّاني صيغةٌ أخرى : " و وحيت وحياً ..... "

أنّ ثّمة تفاهماً مسبقاً بين الطّرفين، المتكلمين والسّامعين، كي تتمّ معرفة فحوى الكلام المسموع ومعناه ، وهذا التّفاهم المسبق شرطٌ بشأن لحن القول في الخير أو الشّرّ.

وهكذا يكون من متعلّقات لحن القول المقصود والمتعمّدَ التّعريض، والفطنة، والفحوى، ومن هنا كان من معاني اللّحن التّعريض، والفطنة، والفحوى أو المعنى حسب تعبير فريق من العلماء. ويصحّ أن تفهم أنّ هذه المعاني الثّلاثة للفظة لحن أفادتها اللّفظة في آنٍ واحد. إنّ التّعريض يكون من المتكّلم، وإدراك الفحوى يكون من السّامع، والفطنة شركةٌ من الطّرفين، وإن كانت أكثر تعلّقاً بالسّامع.

ولحن القول المقصود يمكن أن يفهمه بعضهم بأنّه غير مقصود ، ومن ثمّ هو خطأ صريح في رأيهم، ومن الأمثلة على ذلك البيت المشهور لمالك بن أسماء بن خارجة الفزارى:

منطقٌ صائبٌ وتلحن أحيا ناً وخير الحديث ما كان لحنا[1]

لقد فهم بعضهم أنّ اللّحن هنا مقصودٌ ومن ثمّ هو محمود بمعنى أنّها تعرّض في حديثها. وفهم بعضهم، كالجاحظ[2] أنّ المراد باللّحن : هنا الخطأ في الإعراب. " وذلك أنّه يُستملح من الجواري، ذلك إذا كان خفيفاً، و يستثقل منهّن لزوم حاقّ الإعراب "[3]

ومن الأدلة على إفادة اللّحن معنى الفطنة الحديث الّذي رواه الإمام مسلم[4] في صحيحه عن أمّ سلمة قالت قال رسول الله ﷺ : إنّكم تختصمون إليَّ ولعلّ بعضكم أن

---

[1] لسان العرب : " لحن "

[2] البيان والتّبيين ١ / ١٤٧ و الرّواية هنالك و أحلى الحديث ما كان لحنا

[3] لسان العرب : " لحن "

[4] ٣ / ١٣٣٧ حديث رقم ١٧١٣

يكون ألحن[1] بحجّته من بعض، فأقضي له على نحوٍ ممّا أسمع منه . فمن قطعت له من أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنّما أقطع له به قطعةً من النّار. يقول ابن الأثير[2]، أراد : إنّ بعضكم يكون أعرف بالحجّة وأفطن لها من غيره.

ممّا سبق يتبيّن أنّ لفظة لحن في قول الحقّ جلّ و علا : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ تنطلق في الأساس من الميل عن جهة القصد والاستقامة، وذلك بالانحراف باللّفظ عن ظاهر معناه، أو بالمعنى عن صحيح فحواه، ثمرة تفاهم بين المتكلّم والمخاطب، شريطة تحقّق الوسيلة لدى المخاطب أو السّامع على جهة الخصوص. أمّا ما يتعلّق بالمتكلّم فإنه قصد التّعريض والإيماء والتّلميح. أما ما يتعلّق بالمخاطب أو السّامع فإنّه إدراك فحوى الكلام ومغزاه ومعناه في ضوء التّفاهم السّابق. وأمّا الوسيلة فإنها الفطنة واليقظة واقتناص اللّمحة. ومن هنا أفادت لفظة لحن مع القصد ثلاثة معان، هي التّعريض، وإدراك الفحوى، والفطنة. وهذه المعاني الثّلاثة تقترن دائماً وأبداً باللّحن المقصود، ويستوي في ذلك حينما يكون القصد خيراً وذلك على غرار طلب المصطفى ﷺ من رسله الأربعة إلى بني قريظة أن يلحنوا له لحناً إن كان القوم غادرين، وحينما يكون القصد شرّاً وذلك على غرار لحن القول هنا على لسان المنافقين.

ويتبيّن ممّا سبق أنّ لحن القول بقصد الشّرّ، وأنّ اللّحن بمعني قراءة القرآن الكريم بلحون أهل العشق، يلحقان باللّحن، بمعني الخطأ في النّحو غير المقصود، وهو مذموم.

---

[1] النّهاية في غريب الحديث و الأثر ٤ / ٢٤١

[2] النّهاية في غريب الحديث و الأثر ٤ / ٢٤١

(٧)

"ثواب المؤمنين الطّائعين، وعقاب الكافرين العاصين"

الآيات (٣١ - ٣٤)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

ولنختبر نّكم أيّها المسلمون بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات حتّى يظهر المجاهدون منكم، الصّادقون في جهادهم في سبيل الله تعالى، ونعلم الصّابرين في البأساء والضّرّاء وحين البأس وعلى الطّاعات وعن المعاصي، ونختبر أنباءكم ونمحّص أخباركم و: "ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسنها من قبيحها، لأنّ الخبر على حسب المخبر عنه، إن حسناً فحسن، وإن قبيحاً فقبيح"[1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

وشاقّوا الرّسول : وصاروا في شقّ غير شِقّ الرّسول ﷺ وجانبه. و الشّقاق المخالفة وكونك في شِقّ غير شِقّ صاحبك[2].

إنّ الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالقرآن الكريم، وصدّوا الآخرين عن سبيل الله تعالى، والدّخول في دين الإسلام ، وخالفوا الرّسول ﷺ وكانوا في غير جانبه عليه الصّلاة والسّلام وناحيته، من بعد ما تبيّن لهم الهدى، وبلغتهم دعوة المصطفى ﷺ،

---

[1] الكشّاف ٣ / ١٣٣

[2] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : " شقّ " ١ / ٣٤٨

وجاءهم كلمة الحقّ، لن يضرّوا الله تعالى أبداً في أيّ زمان ومكان، وسيبطل الله تعالى ثواب أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام، لأنّهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى. لقد أرادوا بتلك الأعمال حسن الأحدوثة وتمّ لهم ما أرادوا.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

يا أيها الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ أطيعوا الله تعالى طاعةً مطلقة، و أطيعوا رسوله ﷺ طاعةً مطلقة، ولا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

إنّ الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وصدّوا الآخرين عن صراط الله تعالى العزيز الحميد، وظلّوا على كفرهم و لم ينتفعوا من إمهال الله تعالى لهم، حتّى لقوا الله تعالى وهم كفّار، فلن يغفر الله تعالى لهم أبداً. إنّهم ارتكبوا الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك حتّى ماتوا وهم مشركون.

(٨)

"حثّ المؤمنين على الجهاد في سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس، وإنذار المتثاقلين بالاستبدال بهم غيرهم"

الآيات (٣٥ - ٣٨)

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

فلا تهنوا : فلا تضعفوا أيّها المؤمنون بالله تعالى عن جهاد المشركين وتّجبنوا عن قتالهم[1] وتدعو إلى السّلم : بفتح السّين وكسرها[2] وتدعوهم إلى الصّلح والمسالمة[3]

وأنتم الأعلون : وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم[4]

والله معكم : بالنّصر لكم عليهم[5]

فلا تهنوا أيّها المؤمنون بالله تعالى عن جهاد المشركين، ولا تضعفوا عن قتال الكافرين، ولا تدعوهم إلى الصّلح والمسالمة ابتداءً، ولتكن الدّعوة إلى السّلام والجنوح إلى المسالمة منهم أوّل الأمر : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾[6] وأنتم الأعلون عليهم القاهرون لهم بإذن الله تعالى . والله جلّ و علا معكم بالعون النصر. ولن ينقصكم عزّ و جلّ ثواب أعمالكم. عن ابن

---

(1) تفسير الطبري ٢٦ / ٣٩.
(2) الجلالين
(3) تفسير الطبري ٢٦ / ٤٠
(4) تفسير الطبري ٢٦ / ٤٠
(5) تفسير الطبري ٢٦ / ٤٠
(6) سورة الأنفال ٦١ .

عبّاس قال : كان الرّجل لا ينبغي له أن يفرّ من عشرة ، ثمّ أنزل الله[1] ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ الآية فجعل الرّجل منهم لا ينبغي له أن يفرّ من اثنين[2] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : لمّا نزلت[3] ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يَفِرَّ واحدٌ من عشرة . فجاء التّخفيف فقال[4] : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ قال : فلمّا خفّف الله عنهم من العِدّة نقص من الصّبر بقدر ما خُفّف عنهم[5] ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

فيحفكم : فيجهدكم بالمسألة ويلحّ عليكم بطلبها منكم فيلحف[6]

ويخرج أضغانكم : ويخرج جلّ ثناؤه لو سألكم أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانكم. قال : وقد علم الله أنّ في مسألته المال خروج الأضغان[7]

---

[1] سورة الأنفال ٦٦

[2] فتح الباري ٨ / ٣١٢

[3] سورة الأنفال ٦٥

[4] سورة الأنفال ٦٦

[5] فتح الباري ٨ / ٣١٢ حديث رقم ٤٦٥٣

[6] تفسير الطّبري ٢٦ / ٤١

[7] تفسير الطّبري ٢٦ / ٤١

اعلموا أيها النّاس أنّ هذه الحياة الدّنيا ليست إلاّ لعباً حينما لا يراد وجه الله تعالى بالعمل الجادّ الصّالح، ولهواً حينما لا يكون العمل جاداً ولا صالحاً. أمّا العمل الصّالح الجادّ فإنّه الّذي عمل في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا .

وإنْ تؤمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وتتّقوا عذاب الله تعالى بفعل الطّاعات واجتناب المعصيات يؤتكم الله تعالى ثواب أعمالكم الصّالحة الّتي أردتم بها وجهه الكريم جلّ وعلا، ولا يسألكم جميع أموالكم ولكن بعضها في هيئة الزكاة الّتي تؤخذ من الأغنياء وتعطى للفقراء، وفي هيئة الصّدقات.

إنّ الحقّ جلّ وعلا إن يسألكم أيها النّاس جميع أموالكم، أو جزءاً كبيراً منها، ويلحّ في السّؤال ويلحف في الطّلب تبخلوا بأموالكم ويُخْرج أضغانكم وأحقادكم دليلاً على حبّكم الشّديد للمال.

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

هاأنتم هؤلاء : ها أنتم يا هؤلاء[1]

تختم السّورة الكريمة بخطاب المؤمنين وحثّهم على الإنفاق في سبيل الله تعالى وتحذيرهم من التّقصير في جنب الله تعالى الغنيّ عنهم وإلاّ كان الحساب عسيراً والبطش شديدا. إنّها تقول للمؤمنين : هاأنتم يا هؤلاء تُدْعَوْن في القرآن الكريم وعلى لسان حبيبه ﷺ لتنفقوا في سبيل الله تعالى في مختلف أوجه البرّ وفي مقدّمتها الجهاد في سبيل الله تعالى، فمنكم من يبخل ومنكم من ينفق. ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه لأنّه

---

[1] الجلالين .

يحرم نفسه الثّواب الجزيل من الله تعالى. والله سبحانه وتعالى هو الغنيّ و أنتم الفقـــراء، فكلّ ما في أيديكم من مالٍ وخير فإنّما هو من فضل الله تعالى. فبادروا إلى الإنفاق من المال الّذي آتاكم الله تعالى إيّاه. وإن تعرضوا عن الجهاد في سبيل الله تعـــالى بـــالنّفس والنّفيس يستبدل الله تعالى بكم قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم جبناء. بـــخـــــلاء ولكن أسخياء بكلّ نفسٍ ونفيس.

وهكذا تبيّن سورة محمدٍ ﷺ أو القتال في ختامها القيمة الرّفيعـــة لـــذروة ســـنام الإسلام، الجهاد في سبيل الله تعالى.

التعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة :

١ – سورة محمّدٍ ﷺ من المدنيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على المصطفى ﷺ بعد الهجرة[١]

٢ – عدد آيات السّورة الكريمة ثمانٍ وثلاثون آية، وعدد كلماتها خمسمائة وأربعون كلمة، وعدد حروفها ألفان وثلاثمائة وتسعةٌ وأربعون حرفاً[٢].

٣- تُسمّى السّورة الكريمة بثلاثة أسماء، محمّد ﷺ [٣] والقتال[٤] والّذين كفروا[٥] وسمّيت سورة محمّد ﷺ لمجيء اسمه ﷺ في الآية الكريمة الثّانية . قال عزّ من قائل :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وسمّيت سورة القتال لمجيء هذه الّفظة في الآية الكريمة العشرين في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

[١] انظر الإتقان ١ / ٤٣ و الجلالين و البحر المحيط ٨ / ٦٩ والكشّاف ٣ /١٢٦ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة ١٥/٤٨ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسا بوري ٢٦ / ٢١

[٢] تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٢٦ / ٢١

[٣] انظر تفسير الطّبري ٢٦ / ٢٥ و ٤٢ الكشّاف ٣ / ١٢٦ و فتح الباري ٨ / ٥٧٩ وفتح القدير ٥ / ٢٨

[٤] الإتقان ١ / ٤٣ و تفسير ابن كثير ٧ / ٢٨٩ و ٣٠٦ والكشّاف ٣ / ١٢٦ والبحر المحيط ٨ / ٦٩ و فتح القدير ٥ / ٢٨

[٥] صحيح البخاري ٦ / ١٦٧ و فتح الباري ٨ / ٥٧٩ وفتح القدير ٥ / ٢٨

وسمّيت سورة الّذين كفروا لمجيء هذا القول في أوّل السّورة الكريمة في الآية الكريمة الأولى. قال عزّ من قائل : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

٤ — تتحدّث السّورة الكريمة عن ثلاث فئات ، الّذين كفروا ، الّذين آمنوا ، الّذين نافقوا .

٥ — السّورة الكريمة عنيفةٌ في أسلوبها، عنيفةٌ في معانيها، عنيفةٌ في جرسها وفاصلتها الميميّة الّتي تجيء في ستٍّ وثلاثين آيةً كريمة، الفاصلة الميميّة أشبه بطلقات المدافع . وليس لهذه الفاصلة نظيرٌ بهذه الكيفيّة في سائر سورة القرآن الكريم. وحتى حينما تجيء فاصلة الهاء في آيتين كريمتين، هما الآية الكريمة العاشرة، والآية الكريمة الرّابعة والعشرون، فإنها أشبه بالتّلويح بالسّلاح الأبيض بين الصّفوف في ميدان القتال. علماً بأنّ فاصلة الهاء الّتي جاءت مرّتين خارجيّاً قد جاءت مرّتين كذلك داخلياً وذلك في الآيتين الكريمتين الرّابعة، والثّامنة عشرة. وكأن الفاصلة الدّاخلية في الآية الكريمة الرّابعة تمهيدٌ للفاصلة الخارجيّة في الآية الكريمة العاشرة. وكأنّ الفاصلة الدّاخليّة في الآية الكريمة الثامنة عشرة تمهيدٌ للفاصلة الخارجيّة في الآية الكريمة الرّابعة والعشرين. هذه هي الآية الكريمة العاشرة :

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾

وهذه هي الفاصلة الدّاخليّة الممهّدة في الآية الكريمة الرّابعة :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة الرّابعة و العشرون :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

وهذه هي الفاصلة الدّاخليّة الممهّدة في الآية الكريمة الثّامنة عشرة :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (١)

٦ — الموضوع الرّئيس للسّورة الكريمة قتال المؤمنين كلاً من الكافرين و المنافقين . ويتّضح هذا المعنى من أسماء السّورة الكريمة. إنّ محمداً ﷺ يقود المؤمنين لقتال كلٍّ من الكافرين والمنافقين. و إن للمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكانٍ أسوةً حسنةً في المصطفى ﷺ ، بطل الأبطال وسيّد الرّجال.

٧ — من الصّفات الّتي تصادفنا في السّورة الكريمة من البداية إلى النهّاية في الكثير من الآيات الكريمة المقارنة بين الصّفات المختّلفة. إنّ الآية الكريمة الأولى تنصّ على أهمّ صفات الكافرين وتبيّن عاقبتهم الوخيمة. وإنّ الآية الكريمة الثّانية تنصّ على أهمّ نعوت المؤمنين وتبيّن عاقبتهم الحسنة في الأولى والآخرة. قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة تبيّن السّبب الّذي من أجله أضلّ الله تعالى أعمال الكافرين، والسّبب الّذي من أجله أصلح الله تعالى بال المؤمنين. قال تعالى :

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة بإفاضة في كتابنا : تأملات في سورة محمّد صلى الله عليه وسلّم ٢٤ — ٢٨ الطبعة الثانية مكة المكرمة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة السّابعة تنصّ على أنّ الحقّ جلّ وعلا يثبّت أقدام الّذين ينصرونه عزّ وجلّ، وإنّ الآية الكريمة الثّامنة تبيّن أنّ الكافرين تزلّ بهم الأقدام في كلّ المواطن ويخرّ كلّ واحدٍ منهم لليدين وللفم. قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة الحادية عشرة تبيّن أنّ الله تعالى مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم. قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة الثانية عشرة تبيّن أنّ ثواب المؤمنين الجنّة وأنّ عقاب الكافرين النّار. قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة الرّابعة عشرة تبيّن أنّه لا يستوي من كان على بيّنةٍ من ربّه عزّ وجلّ ومن اتّبع هواه. قال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة الخامسة عشرة تبيّن أنواع الأنهار في الجنّة للمتّقين وأنواع الثّمرات وتتويج ذلك النّعيم المقيم بالمغفرة لهم من الرّب البرّ الرّحيم، وتبيّن في المقابل الماء الشّديد الحرارة الّذي يتجرّعه الظّالمون الخالدون في نار الجحيم. قال تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة السّادسّة عشرة تبيّن أنّ المنافقين المنصرفين عن الهدى زاد الله تعالى قلوبهم انصرافاً فختم عليها، وإنّ الآية الكريمة السّابعة عشرة تبيّن أنّ المهتدين زادهم الله تعالى هدى. قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

وإنّ الآية الكريمة العشرين تبيّن حرص المؤمنين على نزول سورةٍ من القرآن الكريم فيها ذكر الجهاد في سبيل الله تعالى تعبيراً عن استعدادهم لبذل كلّ نفسٍ و نفيسٍ في سبيل الله تعالى، كما تبيّن أنّ الّذين في قلوبهم مرض النّفاق إذا أُنزلت سورةٌ واضحة المعنى والمغزى وذُكر فيها القتال رأيتهم يا محمّد ينظرون إليك نظر المغميّ عليه من خوف الموت الّذي حضرهم أسبابه. قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾

وقد جاءت الإشارة إلى المؤمنين والمؤمنات وإلى علم الله تعالى بما نعمل نهاراً وليلاً في الآية الكريمة التّاسعة عشرة قال تعالى :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

وملائكة العذاب تضرب وجوه المنافقين وأدبارهم ساعة الموت. جاء في الآية الكريمة السّابعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾

ومِنَ النّاس من ينفق في سبيل الله تعالى ومنهم من يبخل، والله تعالى هو الغنيّ ونحن الفقراء، ولن يكون المؤمنون اللاّحقون الّذين يجعلهم الله تعالى بدل المؤمنين السّابقين زمناً ، ولن يكونوا مثل السّابقين المعرضين. جاء في آخر آيات السّورة الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا:

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

٨ – من موضوعات السّورة الكريمة القرآن الكريم. إنّ من نعوت المؤمنين الإيمان بالقرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى على محمّد ﷺ واتّباعهم له لأنّه الحقّ من ربّهم عزّ وجلّ، أما الكافرون فإنّهم يتّبعون الباطل. جاء في الآيتين الكريمتين الثّانية والثّالثة قول الحقّ جلّ وعلا :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

وجاء في الآية الكريمة التّاسعة النّصّ على كره الكافرين القرآن الكريم الّذي أنزله الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

والمؤمنون على حجّةٍ وبرهانٍ من ربّهم عزّ وجلّ بفضل الله تعالى الّذي أنزل على عبده ﷺ هذا الكتاب العزيز الّذي تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ . جاء في الآية الكريمة الرّابعة عشرة القول:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

والمنافقون لا يفهمون ولا يفقهون ما يجري على لسان المصطفى ﷺ من قرآنٍ كريمٍ وحديث شريف. جاء في الآية الكريمة السّادسة عشرة القول:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

والمؤمنون يحبّون أن تنزل سورةٌ من القرآن الكريم في الجهاد في سبيل الله تعالى وواضحة المعنى محدّدة الفحوى، تعبيراً عن استعدادهم لبذل النّفس والنّفيس ابتغاء مرضاة الله تعالى، أمّا المنافقون فإنهم يكادون يموتون من الخوف لمجرّد ذكر لفظ القتال في تلك السّورة المحكمة المنزلة. جاء في الآية الكريمة العشرين قول الحقّ جلّ وعلا:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾

والآية الكريمة الرّابعة والعشرون تنكر على المنافقين ألاّ يتدبروا القرآن الكريم بسبب الأقفال الّتي على قلوبهم، وفي ذلك حثٌّ ضمنيٌّ على تدبّر القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ والمنافقون يكرهون القرآن الكريم كما يكرهه الكافرون أصدقاؤهم ويرتّدون على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى. جاء في الآيتين الكريمتين الخامسة والعشرين والسّادسة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

٩ — الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمد ﷺ هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم الّتي تبيّن معاملة الأسرى في الإسلام. قال عزّ من قائل :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾

١٠ — جاء في ثواب الّذين قُتلوا في سبيل الله تعالى الّذين لن يضلّ الله تعالى أعمالهم في الآيتين الكريمتين الخامسة والسّادسة قول الحقّ جلّ وعلا :

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

١١ — وعد الله تعالى الّذين آمنوا الّذين ينصرون الله تعالى بالنّصر وتثبيت الأقدام ووعْدُ الله تعالى هو الحقّ. جاء في الآية الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾

١٢ – كما كان في السّورة الكريمة لفتٌ لانتباه الكافرين والمنافقين إلى آي القرآن الكريم كان فيها لفت الانتباه إلى آيات الله تعالى الكونيّة الانتقاميّة من أجل الاتّعاظ وأخذ العبرة والتحوّل إلى الصّراط المستقيم. جاء خطاباً لكفّار مكّة في الآية الكريمة العاشرة القول :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾

وجاء في الآية الكريمة الثّالثة عشرة القول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

وجاء في الآية الكريمة الثّامنة عشرة القول:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

ومن علامات السّاعة آية انشقاق القمر الّذي نصّت عليه الآية الكريمة الأولى من سورة القمر، ومنها آية الدّخان الّذي نصّت علية الآية الكريمة العاشرة من سورة الدّخان.

١٣ – قرنت السّورة الكريمة بين الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى في ثلاث آياتٍ كريمات هي الآية الكريمة الأولى. قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

والآية الكريمة الثّانية والثّلاثون. قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

والآية الكريمة الرّابعة والثّلاثون. قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

١٤ — جاء في الآية الكريمة الخامسة عشرة الحديث عن أنهار الجنّة الوحيد على التّفصيل في القرآن الكريم. قال تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

١٥ — العلم الصّحيح قبل العمل وهو الأساس الّذي ينطلق منه العمل الصّحيح. جاء في الآية الكريمة التّاسعة عشرة القول :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

١٦ — المنافقون الجبناء يكادون يموتون لمجرد ذكر القتال في إحدى سور القرآن الكريم؛ بينما المؤمنون حريصون على بذل النّفس والنّفيس. جاء في الآية الكريمة العشرين القول:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾

١٧ — من الظّواهر الأسلوبيّة البارزة في السّورة الكريمة البلاغة بالحذف. نتبيّن هذا النّوع من البلاغة في الآية الكريمة الرّابعة وذلك في القول ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ والمعنى: فاضربوا رقابهم ضرباً. وفي القول : ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ والمعنى :

فإمّا تمنّون منّاً، وإمّا تفدون فداءً. كما تتبيّن الحذف في الآية الكريمة الثّامنة وذلك في القول : ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ والمعنى : فتعسوا تعساً. وفي الآية الكريمة الخامسة عشرة، وذلك في القول: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي ٱلنَّارِ ﴾ والمعنى : أمَنْ هو في هذا النّعيم كمن هو خالدٌ في النّار. ولا يكاد العجب ينتهي من روعة الحذف في الآيتين الكريمتين الحادية والعشرين والثّانية والعشرين وذلك في القول :

﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

والمعنى : فأولى لهم الهلاك وأقرب لهم الموت. طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أحرى بهم وأليق. فإذا عزم الأمر ووجب القتال كرهوه. وإنّ استقامة المعنى وروعته مع القول بعدم الحذف جعل فريقاً من العلماء يذهبون إلى القول بعدم الحذف . والمعنى في رأي هذا الفريق من العلماء : فأولى لهم وأحرى بهم طاعة وقولٌ معروف. فإذا وجب القتال وجدّ الجدّ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم.

وكلا الرّأيين وجيه، الرّأي بالذّهاب إلى الحذف، والرّأي بالذّهاب إلى عدم الحذف. ونحن مع القائلين بالحذف.

١٨ – جاء القول الّذي لا يكاد العجب ينتهي منه : "لحن القول" في الآية الكريمة الثلاثين الّتي تتحدّث عن المنافقين. قال تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولا يخفى التّحوّل البديع المطّرد إلى الأقوى وذلك بالتّحوّل من علامات المنافقين الّتي تراها العين، إلى قولهم وميلهم إلى لحن القول والعدول بالكلام عن أصل معناه وصحيح مغزاه، إلى الأعمال الّتي لا تخفى على الله تعالى.

١٩ – نصّت الآية الكريمة الرّابعة والثّلاثون على أنّ الكافرين الّذين يموتون وهم مشركون لن يغفر الله تعالى لهم . وبحديث السّورة الكريمة في هذه الآية الكريمة عن موت الكافرين ينتهي الحديث عنهم كي يتّحول إلى المؤمنين في الآيات الكريمات الأخيرات من السّورة الكريمة.

٢٠ – بيّنت السّورة الكريمة أنّ الجهاد في سبيل الله تعالى كما يكون بالنّفس يكون بالنّفيس. وكانت عناية الآيات الكريمات الأخيرات من السّورة الكريمة كبيرةً بالمال الّذي حثّت المؤمنين على الإنفاق منه في سبيل الله تعالى، وأومأت إلى الثّواب الجزيل من الله تعالى على هذا النّوع من الإنفاق، وحثّت المؤمنين على محاربة البخل في أعماقهم.

٢١ – خُتِمت السّورة الكريمة بالتّهديد الكبير للمؤمنين بأنّهم إن لم يجاهدوا في سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يستبدل بهم قوماً غيرهم لن يكونوا أمثالهم، بل إنّهم يحبّون الله تعالى ويحبّون إخوانهم المؤمنين ويجاهدون في سبيل الله تعالى ولا يخافون لومة لائم وقد أومأت إلى هذه المعاني الآية الكريمة الرّابعة والخمسون من سورة المائدة الكريمة.

٢٢ – جاء القول : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في ستّة مواضع في السّورة الكريمة. والمعنى: ذلك الأمر أو الأمر ذلك، بحسب ما يُفْهَمُ من السّياق. وهذه المواضع السّتّة في الآيات الكريمات السّتّ، الثّالثة، والرّابعة، والتّاسعة، والحادية عشرة، والسّادسة والعشرون، والثّامنة والعشرون.

٢٣ – في الآية الكريمة الثّالثة عشرة تسليةٌ غايةٌ في الوضوح والقوّة للمصطفى ﷺ. قال تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

٢٤ – يوصف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في الآية الكريمة السّادسة عشرة بأنّ الحقّ جلّ وعلا أكرمهم بالعلم الوهبيّ أو اللّدنيّ. ومعروفٌ أنّ هذا التّعليم من الله تعالى للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بسبب تقواهم. وقد بيّنت الآية الكريمة التّاسعة عشرة أنّ العلم قبل العمل، وبيّنت الآية الكريمة العشرون حرص الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم على المزيد من العلم. إنّهم يتمنّون نزول سورةٍ كريمةٍ من القرآن الكريم في الجهاد في سبيل تعالى.

٢٥ – عناية السّورة الكريمة بالعمل كبيرةٌ جدّاً. إنّها تحثّ المؤمنين على عمل المزيد من الصّالحات وتحثّ الكافرين والمنافقين على الكفّ عن عمل السّيّئات؛ وعلى الإيمان وعمل الصّالحات. لقد جاءت الإشارة إلى الأعمال بأنواعها المختلفة في اثنتي عشرة آية كريمةً هي : الأولى، والثّانية، والرّابعة، والثّامنة، والتّاسعة، والثّانية عشرة، والرابعة عشرة، والثّامنة والعشرون، والثّلاثون، والثّانية والثّلاثون، والثّالثة والثّلاثون، والخامسة والثّلاثون. وقد جاءت الأعمال فاصلةً في تسع آيات كريمات هي ١ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ وإنّ الإلحاح على صلاح العمل في السّورة الكريمة دليلٌ على أهمّيّة العمل في الإسلام، وعلي كونه يجب أن يكون صالحاً.

٢٦ – حينما تأمر الآية الكريمة التّاسعة عشرة المصطفى ﷺ بأن يستغفر لذنبه عليه الصّلاة والسّلام؛ وهو الّذي غفر الله تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، و أن